صورة المرأة في المنامات الأندلسية
دراسة في ضوء النقد الثقافي

م.د. محمد كاظم عجيل
وزارة التربية العراقية – المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار
Mkadm1184@gmail.com

المستخلص :

يهتم هذا البحث بدراسة طائفة من المنامات الأندلسية ، من أجل الوقوف عند صورة المرأة التي وردت فيها ، وبيان مدى تطابقها مع صورتها في عالم اليقظة . متَّخذين من النقد الثقافي منهجاً يسير عليه البحث في قراءة ما تشتمل عليه المنامات من أحداث ودلالات ، إذ يتجلَّى هدف الدراسة في البحث عن مصادر الأنساق الثقافية التي كانت شائعة في الثقافة الفحولية ، والعمل على تعرية الدور الثقافي ، والكشف عن وسائله وأساليبه التي أسهمت في بلورة الصورة النسقية للمرأة ، ومنحتها السيرورة والتداول عبر العصور ، ولفت الانتباه إلى دورها وتأثيرها في تعزيز الهيمنة الذكورية ، وتأكيد ثقافة التهميش والإقصاء التي طالت المرأة .

الكلمات المفتاحية : (المرأة، المنامات الأندلسية، صورة نسقية)

Picture of woman in Andalusian dreams
a study in light of cultural criticism

Dr. Mohammed Kazem Ajeel
General Directorate of Education in Dhi Qar Governorate

Abstract :

This research is concerned with studying arrange of Andalusian dreams , in order to stand at the image of the woman in which it appeared , and the extent of its compatibility with its image in the waking world , adopting cultural criticism as an approach to research in reading the events and and connotations contained in dreams , the aim of the study is reflected in the search for the sources of cultural consistency that were common in the

vernacular culture , and work to expose the cultural role and reveal the means and methods that contributed to crystallizing the formal image of women and giveit the process and circulation through the ages and drew attention to its role and influence in enhancing male domination , emphasizing the culture of marginalization and exclusion that affected women .

Key words :(women , Andalusian dreams , Layout image) .

توطئة :

لقد سجَّلت المرأة حضوراً كبيراً في المدوَّنة الشعرية الذكورية ، وأخذت حيِّزاً لافتاً من مساحة عطائهم الشعري على مر العصور ، فكانت ومازالت ملهمة الشعراء ، التي تعمل على شحذ ملكتهم الإبداعية ، وتحفيز خيالهم على إبداع الصور البليغة المؤثِّرة . فهي ((خمرة الشعر ورحيقه ، يرتشفهُ الشاعر فتأخذهُ نشوة بل خطفة عقلية ، وما ينتبه منها إلاّ وفي فمه لحن سماوي ، يتذوَّقه القارئ ، وقلَّ أن ترى أدباً مُجرَّداً من ذكرها ، ففيه من روحها حلاوة ، ومن دلالها نغمة ، ومن غنجها رقَّة ، ومن فتور عينيها هيمنة))[١]. لذلك انشغل النقد الأدبي كثيراً بتتبُّع صورة المرأة في النتاج الشعري العربي ، مُسخِّراً أدواته القرائية المختلفة في سبيل البحث عن عناصر الإثارة والجمال في الصور الشعرية التي أبدعها الشعراء في أشعارهم ، سواء على مستوى اختيار اللفظ المؤثر، أو توظيف الوسائل البلاغية التي من شأنها تجسيد مشاعر الحب والإعجاب ، وتشكيل الصورة القادرة على إيصال ما يدور بخلدهم من رؤى وأفكار ، وما يعتمل بداخلهم من مشاعر وعواطف وانفعالات . وقد أغفل قضايا كثيرة تتعلَّق بهموم المرأة ، ومشاعرها وأحاسيسها ، ومدى الأذى الذي تعرَّضت له على مر العصور . لذلك برزت الحاجة لقراءات جديدة ومختلفة عمَّا هو متعارف عليه في النقد الأدبي ، تتناول واقع المرأة ، وتسعى إلى بيان ما تعرَّضت له من تشويه ، بفعل النظرة الذكورية الخاطئة التي أسهم الشعر في ترسيخها ، حتى صارت جزءاً من ثقافة المجتمع وتفكيره ، وتحوَّلت إلى ممارسات شائعة ، وقد جرى كل ذلك تحت غطاء الجمالي الذي كان الشغل الشاغل للناقد الأدبي ، فنهض النقد

الثقافي بمهمة البحث في قضايا المرأة التي تمثَّلت في ثنائيات ضدية مختلفة ، منها (المركز والهامش) ، و(الفوقية والدونية) ، و(الهيمنة والخضوع) . فكانت مكانة المرأة ، وأثرها في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، والبحث في آلامها وآمالها وتطلُّعاتها ، وما تتعرَّض له في سبيل نيل حقوقها من القضايا الأساسية التي عالجها النقد الثقافي . وقد شكَّل ذلك دافعاً للخوض في المنامات الأندلسية ، والوقوف عند صورة المرأة التي وردت فيها ، وبيان مدى تطابقها مع صورتها في عالم اليقظة . متَّخذين من النقد الثقافي منهجاً يسير عليه البحث في قراءة ما تتضمَّنه المنامات – موضع الدراسة – من أحداث وصور نسقية ، واقتناص إشارات معيَّنة للكشف عن مصادر الأنساق الثقافية الفاعلة ، والعمل على توجيه النقد نحو دور العنصر الثقافي ، والكشف عن وسائله وأساليبه التي أسهمت في بلورة الصورة النسقية للمرأة ، ومنحتها السيرورة والتداول عبر العصور ، ولفت الانتباه إلى تأثيرها الكبير في تعزيز الهيمنة الذكورية ، وتأكيد ثقافة التهميش والإقصاء التي طالت المرأة ، وشكَّلت تحدِّياً كبيراً ، وهمَّاً ثقيلاً أرَّقها كثيراً ، فكان ذلك سبباً في حزنها واستلابها في حالات كثيرة .

التمهيد / دور العامل الثقافي في تشكيل صورة المرأة

لقد اعتادت التوجُّهات الثقافية أن تبذل جهوداً واسعة في سبيل تحصين النسق الذكوري من التصدُّع والاضطراب والانهيار ، وتقيه من عوامل التعرية التي تحاول أن تجتاح الأرض التي نبت عليها ، وتقتلعه من جذوره عبر ممارسات مُتعدِّدة ، استثمرت فيها فاعلية الخطاب الإمتاعية ، وقدرته على التواصل والإيصال ، انطلاقاً من أنَّ ((الخطاب تضعه الثقافة ، ثم يغدو وسيلة لتمرير تلك الثقافة ، ونشر مضامينها))[٢]. فكانت ترمي بثقلها لإنجاز هذا الغرض ، فعمل التوجُّه الذكوري على تسخير الإمكانات التعبيرية المختلفة ، وجعلها متاحة أمام الرجل ، ليمارس سلطته من دون أيَّة عوائق . إذ ((لا يسمح النسق الفحولي لغيره من الأنساق بأن يتمكَّن من الثقافة ، ولذا يجري نفي ونسخ الخطاب المضاد لكل ما هو فحولي))[٣]. لذلك كانت هناك – ومنذ أقدم الأزمان – رغبة فحولية طاغية نحو تهميش المرأة ، والنظر إليها على أنَّها كائن ضعيف فكرياً ،

ففي تصوُّر أرسطو ((أنَّ النساء رجال ناقصون ، وأنهنَّ كائنات إنسانية تفتقر إلى ما هو جوهري في طبيعة الإنسان : المقدرة على التفكير ، وعلى الرغم من أنَّه اعتقد أنَّ النساء قادرات على التفكير نوعاً ما ، إلا أنَّه كان يظن أنَّ طبيعة الرجل هي أن يفكِّر بطريقة مميزة إنسانياً ، ولكن طبيعة ووظيفة المرأة هي التناسل كالحيوانات))[٤]. لذلك عاشت المرأة قديماً تحت وطأة الاستلاب ، فتعرَّضت كثيراً للتهميش والإقصاء ، وهي ترزح تحت سلطة الرجل وأهوائه . ففي قوانين الثقافة الفحولية هو من يجيد فن الكلام ، وله أن يبوح بأفكاره ومشاعره ، والتعبير عن آماله وآلامه ، وله الحق في التعلُّم ، وطلب المعرفة . فيما كان يُفرَض على المرأة أن لا تجيد سوى فن الإصغاء ، وقد حفلت كتب التراث العربي بأخبار كثيرة ، بيَّنت مدى التعسُّف الذكوري تجاه المرأة ، ومنعها من استبصار النور. ومن ذلك الخبر الذي يقول : ((**رأى بعض الحكماء امرأة تتعلَّم الكتابة ، فقال أفعى تُسقى سمَّاً ، ولله البسامي حيث يقول :**

مـــــا للنساءِ وللكتا بةِ والعمالةِ والخطابة
هـــــذا لنا ولهنَّ منَّا أن يبتنَ على جنابة))[٥]

وقد جسَّد أبو العلاء المعري هذا النسق الذكوري تجاه المرأة بقوله :

علِّموهُـــنّ الغَزْلَ والنَّسْجَ والرَّدْ نَ وخَلّوا كِـــــتابَةً وقِـــــراءة
فصلاةُ الفتاةِ بالحَمْـــدِ والإخـ لاصِ تُجزي عن يونُسَ وبَراءة[٦]

لذلك حُرِمت من حقوقها ، وسُلِب منها حق الدفاع عن نفسها ، حتى وإن كانت هي صاحبة الحق ، وأصبحت خاضعة للهيمنة الذكورية ، وما عليها إلا الطاعة والرضا والتسليم بما قُدِّر لها ، إرضاء لمن منحته السلطة الثقافية الزعامة والهيمنة .

والمتتبِّع لواقع المرأة يجد أنَّها قد حظيت بمنزلة رفيعة في الأساطير القديمة ، فقد ((وافق معظم الباحثين عن الآثار على فكرة أنَّ المرأة كانت مقدسة باعتبارها الكائن المقدس الأساسي . ووافقوا على أنَّ معظم المجتمعات كانت أصلاً مجتمعات تعتمد على النسب الأمومي والنظام الأمومي ، ودعموا نظرياتهم بعدد كبير من الأدلة))[٧]. لكن هذا الأمر لم يصمد طويلاً أمام النزعة الذكورية ، التي سخَّرت جهودها في سبيل تشكيل صورة المرأة على وفق أهواء الذكور ورغباتهم ، فعملوا على التقليل من شأنها عبر

ممارسة أفعال التضليل والتحريف ، فمرَّت حملة النيل من المرأة من خلال تشويه منظومة الأساطير المتعلقة بخلق المرأة ، وقدسيتها ودورها في المجتمع ، فطالها معول الهدم الثقافي ، إذ تمَّ تحوير الأساطير التي تنظر إلى المرأة بوصفها كائناً مقدساً ، ارتبط بالخير والخصب والنماء والجمال ، فـ ((تطوَّرت هذه الأساطير وتضخَّمت ، بفعل ما اتَّصل بها من قصص جديدة وتأويلات مختلفة ، لتتمخَّض في محصِّلتها عن أسطورة خلق المرأة من ضلع الرجل ، وعن تمكُّنها بالتواطؤ مع الحية والشيطان من إخراجه من الجنة . وقصة الجنة والشجرة المحرمة والأفعى والمرأة الغاوية ، موجودة في جميع الأساطير والقصص الشعبية في العالم كله . وقد أظهرت جميع هذه القصص أنَّ هناك جنة ، وفي الجنة أشجار ، منها شجرة محرمة ، وفيها أيضاً أفعى تنفث السم ، وتسلب الجنس البشري ميزة الخلود . وجميع القصص تجعل المرأة دوماً هي الأداة التي تتَّخذها الحية ، أو يتَّخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر الجميل ، سواء كان اسم هذه المرأة حواء أو ليليت أو بندورا أو ويوسي))[٨]. فيما أسهمت بعض الأمثال والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية في التقليل من شأن المرأة ، وهي بلا شك من صنع التوجه الذكوري ، الذي كان صاحب السطوة في تشكيل المنظومة الثقافية العربية ، وغرس أنساق ثقافية محددة الأهداف والغايات ، وبمرور الوقت وجدت طريقها إلى النصوص الإبداعية . إذ أضفى الأدب الاجتماعي / الجنسي الأمثال والشعارات ، ما يكفي لإنماء حالة من العداء للمرأة في بعض الأمور ، وهي في أساسها نتاج فردي ، ربَّما لا أساس له في الواقع والتاريخ ، وربَّما هو تعبير موضوعي عنه في حالات أخرى . ومن شواهد ذلك (القبر صهر) ، و(نعم الختن القبر) ، و(دفن البنات من المكرمات) وغير ذلك من الأمثال الشعائرية ، التي كانت تمثِّل نواة لأيديولوجية ذكورية معادية للمرأة العربية[٩]. وقد ائتلفت أغلب تلك المؤثرات الثقافية في تحجيم شأن المرأة ، عبر غض الطرف عن فضائلها وصفاتها الإيجابية ، بما يؤيِّد حجج الرجل ، ويوسِّع من نفوذه ، ويرسِّخ نظرة الانتقاص والازدراء نحو المرأة . لا سيما في العصور التي سبقت ظهور الإسلام ، ممَّا جعل ((صورة المرأة في المجتمع الجاهلي – وغيره من المجتمعات القديمة – هي صورة متدنية إذا ما قيست بصورة الرجل في تلك المجتمعات ، وهي صورة

بثَّتها ثقافة تلك العصور ، وعزَّزتها في نصوصها الثقافية سواء في ذلك الأدبي منها ، أو غير الأدبي))[١٠]. وعلى الرغم من أنَّ الدين الإسلامي قد أعلى من شأن المرأة كثيراً ، عبر محاربة الأفعال السيئة التي كانت تطال النساء في العصور السابقة ، إلا أنَّ ((أدبيات الأديان وتفسيراتها ، وتحريفاتها التي عمَّت فيما بعد هي ، التي أعادت إلى الحياة الاجتماعية والدينية استلاب المرأة ، كما كان حالها في الأساطير والخرافات ، بل ربَّما إلى الأسوأ الذي كرَّس مجتمعات الظلام والجاهلية))[١١]. فتبنَّى عدد من المفسرين أفكاراً ورؤى وإيديولوجيات معيَّنة نالت من شأن المرأة ، وزادت من مستويات التسلُّط الذكوري في المجتمع ، ((ويدل هذا التبنِّي أو هذا التمثُّل على وقوع بعض المفسرين في شرك الحكايات والأساطير الإسرائيلية التي تسللت إلى كتب التفسير ، وتغلغلت في الفكر الإسلامي وفي المكونات الثقافية والتربوية للمجتمع العربي الإسلامي ، ولبست لبوس الإسلام في التصورات الخاطئة عن المرأة . ويظهر هذا واضحا في موقف بعض الرجال المسلمين من المرأة المسلمة ، وفي أسلوب تعاملهم معها ، والذي يتَّسم غالباً بالتحقير والازدراء . وما يعجب له أنّه على الرغم من تنبُّه بعض المفسرين الثقاة ومنهم ابن كثير ، إلى دهاء وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وتحريفهما للروايات تبعاً لأهوائهما ، فقد استمروا في النقل عنهما))[١٢]. وبمرور الوقت تحوَّلت كثير من تلك الأفكار الدخيلة التي اخترقت المدوَّنة التفسيرية ، واستوطنت فيها ، إلى تأكيد المنحى الثقافي الذي يتربَّص بالمرأة ، ويتصيَّد عيوبها وأخطاءها ، أو يقوم بإيجادها في بعض المواقف ، من أجل قصر الصفات الحميدة على الرجل ، لذلك ((فالعقل وما يدور في فلكه من مفردات ، كالرزانة والسيادة والتفوق احتكرها الرجل لذاته ، وترك المرأة تدور في فلك الجسد الشبقي ، بوصفها موضوعاً للاستهلاك الجسدي))[١٣]. وبقينا نرى صورتها كما جسَّدتها أدوات الثقافة الذكورية ، فكانت مُقتصِرة على النظرة الثقافية ببعدها التقليدي المعتاد ، التي أنتجت واقعاً ثقافياً مُشوَّهاً ، يفتقر إلى العدالة والموضوعية ، بفعل التوجُّهات الانتقائية التي كانت سائدة في أذهان أبناء المجتمع العربي منذ أقدم الأوقات وإلى يومنا هذا ، على الرغم من كل الأصوات التي نادت بضرورة أن تنال المرأة حريتها،

وتتمتَّع بحقوقها ، وعملت على التعريف بقيمتها ودورها في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

الجانب التطبيقي

لابد من الإشارة هنا أنَّ ما يحدث في المنامات يكاد يكون خاضعاً في بعض جوانبه لما يمرُّ به المرء في عالم اليقظة ، وعندئذ تتحرَّك الماكنة الثقافية لتجد لها موطئ قدم في بعض المنامات ، ومن ثم تعمل على إفراز أنساقها على غرار ما يحدث في الواقع المعيش ، فالنائم لا يمكن له أن ينفصل عن واقعه الاجتماعي ، أو أن ينسلخ عن علاقاته الشخصية مع أبناء المجتمع ، وليس بمقدوره أن يتجرَّد كليَّاً عن الموجِّهات الثقافية التي تسعى دائماً إلى فرض إرادتها ، عبر التحكُّم بسلوكه ، وتوجيه ما يصدر عنه من أقوال ومواقف في عالم اليقظة باتِّجاهات معيَّنة ، لذا نجده يذعن لها في بعض مناماته ، ويسير وفقاً لاشتراطاتها ومحدداتها . وهذا الأمر يؤكِّد سطوة العامل الثقافي ، ومدى تأثيره على أفكار الرجل وقراراته وتصرفاته ، لا سيما فيما يتعلَّق برسم صورة المرأة ، سواء بحصر وجودها وكيانها في جسدها المتعوي ، أو بجعلها مصدر الخطيئة ، أو تعمُّد إلصاق الصفات الذميمة بها ، لذلك سيتم دراسة صورة المرأة في المنامات الأندلسية عبر محورين هما : (المرأة المتعة والإغراء) ، و(المرأة والخطيئة) .

أولاً / المرأة المتعة والإغراء

لعلَّ من الأشياء التي لا يمكن تجاوزها ، وتستدعي الحاجة الوقوف عندها ، هي علاقة الرجل بالمرأة على مستوى الجسد ، إذ لا يمكن إغفال دور جسديهما في عملية التواصل ، انطلاقاً من المقومات الخاصة التي يمتلكها كل جسد ، والوظائف التي يؤديها أثناء عملية الاتِّصال الجسدي ، لا سيما وظيفة الإثارة في الجسد الأنثوي ، لذلك فإنَّ ((خطاب الأجساد أقوى من خطاب الأفعال ، فحين تتصهر مكامن الجمال الأنثوي أمام الذكورة ، يغدو الكلام للشهوة لا محال))[١٤]. فتتعمَّد الإرادة الذكورية إلى غض الطرف عن إمكانات المرأة الإبداعية ، وعدم الالتفات لما تملكه من قدرات عقلية وعلمية ،

وإهمال مشاعرها وأحاسيسها وأفكارها ، وتغييبها عن المشهد الشعري ، ويتم النظر إليها بوصفها جسداً خُلِق لمتعة الرجل ليس إلا . مثلما ذكره أحد الشعراء سابقاً ، بقوله :

إنَّ النّساءَ رياحينٌ خُلِقنَ لَنا وكلُّنا يَشتهي شمَّ الرَّيَاحِينِ(١٥)

وما ذكره شاعر آخر ، بقوله :

ونحنُ بَنُو الدُّنْيَا وهُنَّ بَنَاتُها وعيشُ بني الدُّنيا لقاءُ بَناتِها(١٦)

وتبقى قيمة المرأة في تاريخ الثقافة الفحولية ، وعماد حظوتها ، مرهوناً بجمال جسدها ، الذي أغلق على عشَّاقها سُبل الابتعاد عنها ، ويكمن ذلك في تناسقه ، وجمال أعضائه ، فلولا رشاقة قوامها ، وانكسار لحظ نظرها ، ورحيق ثغرها ، وجمال شعرها وعينيها ، لما نالت حظوة وجودية في أنظمة الخطاب الذكوري ، ولذا فإنَّ الثبات والصبر لا طريق لهما مع عُشَّاق هذا الجمال الأنثوي(١٧). إذ أفردت الذائقة الشعرية العربية مساحة كبيرة في تصوير جماليات الجسد الأنثوي ، فالشاعر العربي منذ القدم التفت إلى المواضع التي تلبِّي اشتهاءاته ورغباته ، وكان يلتذ كثيراً في تصوير مواضع الجمال المثيرة في جسدها ، فاتَّبع الجانب الحسي في وصف مفاتن المرأة ، لا سيما تلك التي تعمل على تحفيز قواه الذكورية ، وتحفيز شبقيته . لذا فإنَّ ((الجمال من ضمن طقوس الولوج إلى الجسد الحسي ؛ لأنَّ الأنثى إن لم تكن جميلة على وفق مرجعيات الثقافة الفحولية ، تُستبَعد من أنساق الثقافة الأدبية ، وتصبح في حاشية دونيتها))(١٨). وبمرور الوقت أصبحت قضية جمال الجسد الأنثوي ، تمثِّل حالة نسقية اعتاد الشعراء على ذكرها في أشعارهم الغزلية .

ولم تقف الثقافة عند حدود جعل صورة المرأة مقتصرة على جمال جسدها فحسب ، بل عملت على إبراز صورة للمرأة التي يسعى الرجل إلى الإيقاع بها ، واصطيادها ، بهدف الاستمتاع بجسدها . فهو من بيده زمام المبادرة ، وبإمكانه فرض نفسه عليها ، عبر إغرائها بشتى الوسائل ، التي تجعل منه سيداً وصياداً دائماً ، وتجعل من المرأة تابعة وفريسة منتظرة . وقد عدَّت المرأة هذا السلوك الجنسي العدواني تجاهها قدراً لا مفر منه ؛ لأنَّه يعكس تصوُّرها هي ذاتها ، وتصوُّر المجتمع بكامله لطبيعة الأدوار بين الجنسين في الحياة(١٩). وقد كان تراثنا الأدبي حافلاً بمغامرات غرامية عديدة ، قام بها

عدد من الشعراء ، فجعلوا منها ميداناً لإبراز شجاعتهم وذكائهم في استدراج النساء ، وغالباً ما تنتهي بانتصار الشاعر البطل ، وحصوله على مبتغاه ، ورضوخ المرأة له ، وانصياعها لأوامره ورغباته ، وتمكينه من جسدها . فهي دائماً تعدُّ جسداً بالنسبة للآخر ، وطعماً لذيذاً لا بدَّ من تذوُّقه ، وآلة يجدر به أن يمتلكها[٢٠]. ويبدو أنَّ هذه التوجُّهات الثقافية قد حجزت مكانها في أذهان عدد من الشعراء الأندلسيين ، وأخذت تنتظر الفرصة للخروج إلى العلن ، ومنهم المعتمد بن عبَّاد ، وهذا يعكس تأثُّره بأسلافه المشارقة ، إذ استوحى تجاربهم الغزلية ، لا سيما تلك التي تعتمد على الجانب الحسي ، فرسم مشهداً شعرياً تدور أحداثه في المنام ، استعرض فيه قوَّته الفحولية ، وعنفوانه الذكوري في سعيه إلى إشباع رغباته وملذَّاته ، عبر رحلة غرامية كان بطلها هو وحده ، فعمد إلى إخفاء صوت الأنثى ، وتغييب تمنُّعها . وهذا الأمر شائع في بعده وامتداده الثقافي عبر العصور المتعاقبة . وكأنَّنا نستمع إلى مغامرات امرئ القيس ، وهو يقص لنا بطولاته الغرامية على خارطة الجسد الأنثوي ، إذ يقول :

إنِّي رأيتُكِ فـي المنامِ ضَجيعَـتي وكـأنَّ ساعَـدكِ الوثيرَ وسَادِي
وكَـأنَّما عانقْتِني وشكَـوتِ ما أَشكُوهُ من وجدي وطولِ سُهـادِي
وكـأنَّني قبَّلـتُ ثَغْرَكِ والطُّـلَى والوجْنَتينِ ونلـتُ منكِ مُـرادِي
وهـواكِ لـولا أن طَيْفَـكِ زائرٌ في الغِبِّ لِي مَا ذُقْتُ طَعْمَ رِقـادي[٢١]

يشير النص السابق إلى حركية واسعة للنسق الثقافي ، الذي يتجلَّى في النظرة المادية للمرأة ، فهي ليست سوى موضع لإشباع لذَّات الرجل وإمتاعه ، فأعلن الشاعر عن سيطرته التامة على أجزاء مختلفة من جسد محبوبته ، وقام بممارسة الفعل الجنسي بنوع من التباهي والتشفِّي ، إذ ((في داخل كل إنسان حيوان مُغلَّف بجسد إنساني ، وهذا الحيوان يتحرَّك واثباً إلى الخارج في كل لحظة يجد فيها باعثاً شهوانياً له))[٢٢]، سواء كان في اليقظة ، أو في المنام ، بما يكشف عن رضوخ الشاعر لهيمنة النسق الثقافي ، الذي يرى المرأة جسداً للمتعة ، وتحكُّمه في تشكيل أبعاد صورتها ، التي ترتكز على نسقية الجمال الجسدي ، وهي الصورة الشائعة في الوعي الجمعي الذكوري . أمَّا الحالة النسقية الأخرى التي شكَّلت حضوراً لافتاً في طيَّات النظرة الذكورية للمرأة ، فهي

استسلامها للرجل العاشق لا سيما في العلاقات الغرامية ، وليس أمامها إلا الطاعة والخضوع والانقياد التام ، ولا يحق لها الاعتراض والتمنُّع ، أو إبداء الرأي ، أو مناقشة الرجل في أمر هي طرف فيه . وهو ما تجلَّى في النص السابق ، إذ بدت المرأة مسلوبة الإرادة ، لا تملك من أمرها شيئاً . فأذعنت للواقع ، ومنحت جسدها للمعتمد ، ليستمتع به كيفما يشاء ، فقام بممارسات جسدية متعددة غلب عليها الطابع الغريزي ، فتجسَّدت في مضاجعة محبوبته ، ونومه على ساعدها الممتلئ لحماً ، ومعانفتها ، وتقبيل فمها وعنقها ووجنتيها ، ثم ختمها بعملية الاتصال الجسدي ، بقوله : (**ونلتُ منكِ مرادي**) . ويبدو أنَّ ما قام به المعتمد من إظهار شبقيته الجنسية ، قد جاء متأثراً بما عُرِف عنه في عالم اليقظة ، واستكمالاً لمسار حياة اللهو التي كان يعيشها مع النساء ، فقد كان مُغرماً بالجمال الأنثوي ، يُعجَب به أينما رآه ، فغلب على غزله الحديث عن لذَّة المتعة بالجمال ، ولم يكن حبَّه حبَّاً عذرياً خالصاً ، ويفتقد للنزعة الصوفية[٢٣]. لذلك بقي يدور في فلك المتعة الجسدية ، ولم يخرج من تأثيراتها حتى في نومه ، إذ انغمس بملذاته ، وأخذ يمارس نزواته ومطامحه الجامحة نحو الجسد الأنثوي مثلما يريد ويشتهي .

ومن جهة أخرى فقد جاءت بعض المنامات مُحمَّلة بحمولات نسقية ترى في المرأة مصدراً لفتنة الرجل ، انطلاقاً من الاعتقادات التي ترى المرأة أحد جنود الشيطان ، أو هي شيطان الإنس ، لذلك عُدَّ الجسد الأنثوي فتنة ، تحل معه اللعنة أينما حل ، ويستهدف طهارة الرجل ونزاهته واستقامته ، فيثير رغباته الذكورية ، وإثارته تعمل – في الغالب – على توريط الرجل في خطايا لم يكن ليرتكبها ، فيُنظَر إليه كضحية لسلاح شيطاني هو جسد المرأة[٢٤]. ونجد ذلك في المنام الذي رواه الشاعر أبو البركات البلَّفيقي بقوله : ((**نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب ، عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وقد رأيت في النوم كأنِّي أريد إتيان امرأة لا تحلُّ لي ، فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذلك ، المرَّة بعد المرَّة ، قولي :**

ألا كَـــرَّمَ اللهُ الرَّقيبَ فـــإنَّهُ كفاني أموراً لا يَحِـــلُّ ارتكابُها

وبالغَ في سدِّ الذريعةِ فاغتدى يلاحظُني نومـــاً ليُغلَقَ بابُها))[٢٥]

إنَّ ما حصل لأبي البركات في المنام ، وما تبع ذلك من نظم نص شعري في اليقظة ، يكشف عن تصارع نسقين : أحدهما نسق ظاهر يشير إلى رغبة الشاعر في بيان طبيعة شخصيته الملتزمة بتعاليم الدين الإسلامي ، فقد كان معروفاً بالعفَّة والتديُّن ، وهو ما ذكره لسان الدين بن الخطيب بقوله : ((نشأ ببلده المرية عمود العفَّة ، فضفاض جلباب الصيانة ، غضيض طرف الحياء ، نائي جنب السلام ، حليف الانقباض والازورار ، آوياً إلى خالص النشب وبحت الطعمة ، لا يُرَى إلا في منزل من سأله ، وفي حلق الأسانيد ، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المُعدَّة للتعبُّد))[٢٦]. فكشف المنام عن مدى عفَّة أبي البركات ، ورعاية الله سبحانه وتعالى له ، في إبعاده عن الوقوع في الخطأ حتى وإن كان في عالم النوم . وبذلك فقد اشتمل المنام على سلطة نسقية عملت على توجيهه باتجاه الورع والتقوى ، تمثَّلت بسلطة الرقيب ، التي هي جزء من سلطة الضمير ، فمارست دورها في تعزيز حصانة الرائي ، لذلك جاء المنام انعكاساً لما يعيشه في اليقظة .

أمَّا النسق المضمر ، فيشير إلى أنَّ الشاعر ربَّما كان يعيش كبتاً جنسياً ، ويعاني حرماناً في علاقته مع النساء ، وليس باستطاعته مُمارَسة رغباته وملذاته بصورة مُعلَنة ، التي قد تصطدم بعوائق كثيرة (دينية واجتماعية) ، فتجعله مكبَّلاً وخاضعاً لها ، وربَّما شكَّل ذلك عاملاً ضاغطاً قاده إلى البحث عن وسيلة أخرى تتيح له إخراج نزواته المكبوتة الحبيسة بداخله . فالإنسان في أحايين كثيرة يعاني صراعاً عنيفاً يكون كامناً في أعماقه ، فهو يشتهي أموراً كثيرة ، إلا أنَّ طبيعة الحياة الاجتماعية تدفعه إلى كبت شهواته وإخفائها ، فالآداب والعادات والأعراف الاجتماعية تفرض عليه نمطاً محدداً من السلوك ، لكن غرائزه العارمة تضطره أحياناً إلى مخالفة ذلك السلوك ، لذلك هيأت له الطبيعة مخرجاً يخفف به شدة الصراع المحتدم بداخله ، عبر صور مختلفة أهمها الأحلام ، فليلجأ إليها ليخلق الحياة التي يشتهيها ، ولم يستطع تحقيقها في يقظته[٢٧]. لذلك شكَّل الحلم في الخبر السابق فضاءً رحباً وافر للرائي فسحة من الحرية ، جعلته يفرغ ما يجيش بداخله ، ويهيمن على تفكيره ، فيمارس في منامه ما عجز عن ممارسته في اليقظة ، فوجد نفسه في حالة مختلفة عن عالم اليقظة ، لا سيما فيما يتعلَّق بالتعبير

عن مشاعره وأحاسيسه ، والكشف عن ميوله نحو الاستمتاع بالجسد الأنثوي ، بناء على ما ذكره أفلاطون من ((أنَّ الملذات والرغبات التي لم ينظمها القانون ، أو الرغبات العليا بمساعدة العقل تثور على نفسها في الأحلام ، بينما ينام الجزء الأهدأ من النفس ، ويكون عند ذاك قد انسحب ضابط العقل من الميدان))[٢٨]. لذلك فإنَّ الرغبة الذكورية الجامحة نحو الممارسة الجنسية ، كانت حاضرة في التراث العربي ، وقد صرَّح بها عدد من الشعراء ، وذكروها في أشعارهم ، ووردت في الأمثال والأساطير ، وغير ذلك من روافد الثقافة المختلفة ، حتى أصبحت نسقاً ثقافياً معتاداً في اليقظة والمنام على حد سواء .

ومن الجدير بالذكر أنَّ هناك مجموعة من المنامات تدور أحداثها حول الشغف بالجواري ، بوصفهنَّ مصدر الإثارة والإغراء ، إذ كان يُنظَر إليهن بمنظار المتعة الجسدية في أحايين كثيرة ، وقد شاعت هذه الحالة كثيراً في المجتمع الأندلسي على المستويين السياسي والاجتماعي ، وهنا ينقل ابن حزم في إحدى رسائله ما جرى لأحد أصدقائه في المنام ، إذ يقول : ((**إنِّي دخلت يوماً على أبي السري عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد ، فوجدته مفكراً مهتماً ، فسألته عمَّا به ، فتمنَّع ساعة ثم قال لي : أعجوبة ما سمعت قط . قلت : وما ذاك؟ قال : رأيت في نومي الليلة جارية ، فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمتُ بها ، وإنِّي لفي أصعب حال من حبها . ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً لا يهنئه شيء وجداً ، إلى أن عذلته وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلِّق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم من هي؟ قال : لا والله ، قلت : إنك لَفِيل الرأي ، مصاب البصيرة إذ تحب من لم تره قط ، ولا خلق ولا هو في الدنيا ، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر ؛ فما زلت به حتى سلا وما كاد**))[٢٩].

يعكس المنام السابق البعد النسقي الذي طرأ على المنظومة الثقافية ، المتمثِّل بجنوح الأندلسيين نحو الجواري ، فأُضيفت حالة نسقية ساعدت البيئة الأندلسية على نموِّها وازدهارها ، حتى أصبحت الشغل الشاغل للعشَّاق ، ممَّا أدَّى إلى ازدهار قيم نسقية لم يقف تأثيرها عند حدود الواقع ، بل زحفت نحو المنامات ، بما يدل دلالة واضحة على هيمنة هذه الحالة على العقول والقلوب ، وأصبح ورودها في المنام تجسيداً لنسق ثقافي

قار في أذهان أبناء المجتمع الأندلسي ، الذين وجدوا في الجواري ما يحقِّق لهم المتعة الجسدية ، والانتشاء العاطفي في أحايين كثيرة ، في ظل أجواء الانفتاح والحرية التي خيَّمت على بلاد الأندلس ، وما أفرزته من واقع مليء بالجمال ، وجدت فيه الجارية القدر الكافي للتعبير عن مشاعرها وأحاسيسها عبر الغناء ، ونظم الشعر ، والحضور إلى النوادي والأماكن العامة . لذلك فإنَّ هيام الرائي بالجارية لم يقتصر على المنام ، بل امتدَّ ليشمل اليقظة ، إذ لم يستطع مقاومة ما رآه في المنام ، فأصبح مهموماً حائراً هائماً ، ولم يظهر ثباتاً وصموداً ، بفعل حركية النسق المُتمثِّل بأثر الجواري في إشاعة أجواء خاصة ، مليئة بمشاعر الإعجاب والهيام .

ونسقية ارتباط الجواري بالإغراء قد تكرَّرت في منامات أخرى ، ومن ذلك المنام الذي يُنسَب إلى الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون الحسيني ، إذ يقول : **((كانت لي في صبوتي جارية وكنت مُغرى بها ، وكان أبي – رحمه الله – يعذلني فيها ، ويعرض لي بيعها ؛ لأنها كانت تشغلني عن الطلب والبحث عليه ، فكان عذله يزيدني إغراء بها ، فرأيت ليلة في المنام كأنَّ رجلاً يأتيني في زي أهل المشرق كل ثيابه بيض ، وكان يُلقَى في نفسي أنَّه الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنهما) ، وكان ينشدني :**

تصبو إلى مــيٍّ ومــــيٌّ لا تنِي … تُزهَــى ببلواكَ التي لا تنقــضي

ونِجـــــارُكَ القومُ الأُلى مـا منهمُ … إلا إمــــامٌ أو وَصــيٌّ أو نـبـي

فاثنِ عِنانكَ للهُدى عن ذي الهـوى … وخـفِ الإلهَ عليكَ ويحـكَ وارعوي

قال : فانتبهت فزعاً مفكراً فيما رأيته ، فسألت الجارية هل كان لها اسم قبل أن تتسمَّى بالاسم الذي أعرفه؟ فقالت : لا ، ثم عاودتها ، حتى ذكرت أنَّها كانت تُسمَّى بمية ، فبعتها حينئذ ، وعلمت أنَّه وعظ وعظني الله به عز وجل وبشرى))[٣٠].

وهنا استوحى المنام أحداثه من الواقع الذي كان يحيط بابن ميمون في عالم اليقظة ، بعد أن أظهر ميلاً كبيراً نحو جاريته ، فتعلَّق بها تعلُّقاً شديداً ، حتى أنَّه وقف مدافعاً عن توجُّهاته الشعورية ، ولم تفلح معه جميع محاولات أبيه التي كانت تحثَّه على الابتعاد عنها وتركها ، لا بل قد زادته عزماً وإصراراً على التمسُّك بها . إلا أنَّ ما يثير الانتباه هو

أنَّ الصراع الذي عاشه مع أبيه ، قد تجلَّى في المنام ولكن بصورة تبدو مختلفة ببعض جوانبها ، التي تمثَّلت في الأجواء الإيمانية بإيحاءاتها المقدَّسة المستمدَّة من عبق الشخصية الحسينية ، وأبعادها النورانية المؤثرة التي تركت أثراً إيجابياً على نفسية الرائي ، عبر تأثُّره بما رآه من مشهد معبِّر بدلالاته وإيماءاته التي تجسَّدت في مظهر الإمام (عليه السلام) ، وما أحاط به من ثراء دلالي كبير ، الذي أفرزته إيحاءات اللون الأبيض ، بوصفه لون الصفاء والنقاء ، وهو يشير في بعض دلالاته إلى الأمل النابع في وسط الظلام ، وله تأثير فعَّال يوحي بالصدق والأمانة والبراءة[٣١]. وورود اللون الأبيض في المنام يرتبط في بعض جوانبه ((بظروف الفرد ، وما يحيط به من ناس وأحوال تتطلَّب منه إعادة النظر بالكثير من قضاياه العامة ، وتسليط بعض الأضواء عليها))[٣٢]. الأمر الذي ولَّد انطباعاً طيَّباً تجلَّى تأثيره على قرارات الرائي حينما أفاق من نومه ، فقام ببيع الجارية التي هام بها كثيراً . بعد أن عاش لحظات روحانية وهو يرى جده الإمام الحسين (عليه السلام) ، فأخذ يستمع إلى مواعظه وإرشاداته التي حملها النص الشعري المنظوم في المنام ، إذ اشتمل على سلسلة من النصائح ، التي أشارت وذكَّرت الرائي بامتداده وإرثه الخالد ، بما يجعله يشعر بالفخر والاعتزاز بالنسب المحمدي الأصيل الذي ينتمي إليه . والغاية من وراء ذكر النسب حثّه على ترك الجارية ، وعدم التعرُّض لها ، وقد أكَّد ذلك عبر صياغة لغوية اعتمدت في بعدها الوعظي على الإفادة من دلالات فعلي الأمر (اثنِ ، وخف) ، ولفظتي (ويحك ، وارعوي) ، التي تحمل معاني الزجر والتوبيخ في سبيل زيادة الضغط عليه ، لعلَّه يعود إلى رشده ، ويستعيد صوابه المفقود ، رغبة في تقويم سلوكه ، فيسير على خطى آبائه وأجداده ، ويتَّبع نهجهم ، بعيداً عن سلطة القلب وميوله وغرائزه . وقد حمل ذلك إشارة تنبيهية تدعو إلى عدم الانجرار خلف الموجِّهات الثقافية بأنساقها الغرائزية ، وعدم الإذعان لتأثيراتها ، لذلك يدخل المنام في دائرة نقد القيم النسقية التي تحاول أن تفرض توجُّهاتها ، وتعمل على التحكُّم بسلوك بعض الرجال ، لا سيما ما يرتبط بالبحث عن اللذة التي يمكن أن تتوافر عند بعض الجواري .

وقد امتدَّ أثر الجواري إلى عصر بني الأحمر ، فيذكر جامع ديوان ابن زمرك الأندلسي ما جرى معه في المنام : ((**ومن مقطوعاته الموجودة بخطه ، قال : رأيت**

ليلة الثامن لربيع الأول من عام خمسة وثمانين وسبعمائة كأنِّي أنشد بديهة في النوم :

قالَتْ وقـامَتْ تُظِلُّ جِسْمي من قُرْصَةِ الشَّمْسِ بالمِظَلِّ
مولاي هـــــذا ظِلٌّ ظَلِيلُ وأنْتَ دُونَ الأنامِ ظِلِّـــي))[٣٣]

لقد جرى المنام في أجواء مفعمة بالرقَّة والعذوبة ، وهو ما كشف عنه الخطاب الشعري ، الذي انمازت لغته بالرقة ، إذ إنَّنا أمام مشهد غرامي تفوح منه رائحة المودة ، وقد صيغ بأسلوب قصصي ، غلب عليه طابع المناجاة ، كانت فيه الجارية هي من تتودَّد إلى سيدها سواء بالفعل عبر قيامها بحمايته من حرارة الشمس ، أو بالقول حينما جسَّدت مشاعرها وأحاسيسها ، وأسمعته خلجات قلبها الواله به ، ليكون لها الظل الذي تستظل بظلاله . ونعتقد أنَّ ما جرى في المنام لم يكن بعيداً عمَّا كان يحدث في بلاد الأندلس من تفشي ظاهرة الولع المفرط بالجواري ، والاستمتاع بالحوار معهن .

ثانياً / المرأة والخطيئة

لعلَّ من أبرز الأنساق الثقافية الفاعلة في عالم اليقظة النظرة الذكورية المتعالية ، التي تنتقص من مكانة المرأة ، وتعدُّها كياناً هامشياً تُرمَى عليه أخطاء الرجل وعيوبه وممارساته العبثية في بعض الأحايين ، فعملت الثقافة الذكورية على تقبيح صورة المرأة ، عبر تعمُّد إلصاق الخطيئة بها ، وإخفاء الأفعال الصائبة التي تصدر عنها . بينما تتم تبرئة الرجل منها ، فيكون في مأمن من الحساب والعقاب في أحايين كثيرة ، ويجري ذلك بمباركة المجتمع الذي يمنح تلك التوجُّهات والممارسات غطاءً يحتويها ، ويعينها على الحركة والتداول والانتشار ، ((فالمجتمع لا يحتقر الرجل مهما فعل ، بل لا يفكر أن يطلق عليه حكماً ، بينما المرأة تُعاقَب أشد عقوبة لأقل خطأ ترتكبه))[٣٤]. وبمرور الوقت شاعت هذه الصورة ، وراجت كثيراً ، وتعاظم حضورها في أغلب المجتمعات العربية ، حتى أصبحت شيئاً مألوفاً يدخل في كثير من الممارسات الذكورية ، بناء على رؤية أسطورية متوارثة تقول : ((إنَّ كل الأشياء كانت في بداية الأمر خاضعة للإنسان ، لكنَّ امرأة ألقت بنا في ذل الاستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء ، بل

جاءت به المرأة ؛ لأنَّها هي التي أضاعت الجنس البشري))[٣٥]. وقد تسرَّبت إلى أذهان كثير من المفسرين هذه النظرة العدائية المبنية على الاتِّهام الكيدي ، فيذكر ابن كثير في تفسيره ((لمَّا أكل آدم من الشجرة قيل له : لِمَ أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ، قال : حواء أمرتني))[٣٦]. وهذا الفهم أصبح نسقاً ثقافياً مهيمناً في ذهن الفرد العربي منذ أقدم العصور ، وما زال متغلغلاً في الوعي الجمعي ، فاتَّخذته الثقافة الذكورية وسيلة لتهميش الأنثى ، ممَّا أدَّى إلى أن تقع ضحية للممارسات الذكورية ، فتُلصَق بها الأخطاء والمعاصي ، ويبدو أنَّ هذه الرؤى الإقصائية الموجَّهة تجاه الأنثى ، لم يقف تأثيرها عند حدود اليقظة ، بل وجدنا لها انعكاسات في بعض المنامات ، ومن تجليات صورة ذلك في المنامات الأندلسية ، ما قاله يحيى بن حكم الغزال في إحدى مقطوعاته الهجائية :

سألتُ في النَّومِ أبي آدمـا فَقُلْـتُ والقلبُ بهِ وامــقُ
أابْنُـكَ باللهِ أبو حـــازمٍ صَلَّى عليكَ المالكُ الخـالقُ
فقال لي إن كانَ مِنِّي ومن نَسْلي فَحــوَّا أُمُّكُمْ طالـقُ[٣٧]

وتكرَّر هذا النسق في موقف آخر ، فتذكر الروايات ((**لمَّا بلغ المعتصم أنَّ خلف بن فرج السميسر هجاه ، احتال في طلبه حتى حصل في قبضته ، ثم قال له أنشدني ما قلت فيَّ ، فقال له : وحقَّ من حصَّلني في يدك ما قلت شراً فيك ، وإنَّما قلت :**

رأيتُ آدمَ في نومـــي فقلتُ له أبا البريَّةِ إنَّ الناسَ قد حكموا
إنَّ البرابرَ نسلٌ منكَ قـالَ إذنْ حواءُ طالقةٌ إنْ كانَ ما زعموا

فنذر ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت هارباً إلى بلادك))[٣٨].

فكلا النصين يدخل في باب الهجاء الساخر ، إذ في النص الأول صوَّر لنا الشاعر يحيى الغزال موقفه الهجائي عبر محاورة النبي آدم (عليه السلام) ، قال إنَّها جرت في النوم . وتقنية الحوار تمثِّل وسيلة من وسائل التعبير القصصي ، وإجراء فنياً فاعلاً في تجسيد تجربته الشعورية ، فرضته الحاجة إلى تجسيد الصورة الساخرة ، التي أراد عبرها النيل من المهجو أبي حازم ، وتجريده من الفضائل . أمَّا في النص الثاني ، فقد سلك السميسر السبيل نفسه ، ووظَّف الأدوات ذاتها في هجاء صاحب غرناطة ، وإثبات رؤيته

الهجائية الساخرة . وممَّا تجدر الإشارة إليه هو أنَّ طريقة الهجاء التي اتَّبعها الشاعران كانت تشتمل على الإثارة والتشويق ، فأنتج ذلك صورة تعبيرية مليئة بدلالات السخرية والازدراء . إلا أنَّ إخضاع النصين السابقين للقراءة الثقافية ، يكشف عن حركة فاعلة للنسق الثقافي المضمر ، فآليات التأويل على وفق مقاييس النقد الثقافي ، تحتِّم علينا مغادرة حالة التلقي الشائعة ، والابتعاد عن الانبهار بجماليات النصين ، وعدم الركون للمعاني الظاهرة ، بل تدعونا إلى الغوص في أعماقهما ، وكشف ما خبأته الثقافة من أشياء قبيحة ، تخفَّت خلف الأشياء الجمالية . فالشاعران قد وقعا تحت تأثيرات ثقافية معينة ، فرضت نفسها لحظة إنتاج نصيهما ، ولم يكن بإمكانهما الإفلات من إسارها . فكلا النصين يقوم على جملة ثقافية هي (طلاق آدم لحواء) ، وهذا الشيء تمَّ توارثه من المخزون الثقافي القار في الأذهان ، الذي يرى أنَّ حواء هي من دفعت النبي آدم (عليه السلام) إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، فقادته إلى المعصية ، لذلك كان لجوء النبي آدم (عليه السلام) إلى طلاق حواء حسب رؤية الشاعرين ، يمثِّل حالة نسقية متجذرة في المنظومة الثقافية العربية ، التي ترسَّبت فيها النظرة الدونية والتهميش المتعمَّد للمرأة ، عبر تحميلها مسؤولية آثام الرجل وممارساته وأفعاله الخاطئة .

وعلى الرغم من المكانة المتقدمة التي حظيت بها المرأة الأندلسية ، واستعادتها لبعض حقوقها المستلبة ، إلا أنَّ الصورة السلبية المترسبة في الأذهان قد شكَّلت نسقاً ثقافياً وجد طريقه إلى الشعر الأندلسي ، إذ لم يكن شعراء الأندلس بمنأى عن تأثيرات العامل الثقافي ، وليس بمقدورهم الوقوف بوجه الحيل الثقافية التي اتَّبعها في اختراق الوعي الجمعي ، وتكوين نمط خاص لصورة المرأة ، يستمد قوَّته وقدرته على التمدُّد والانتشار من مرجعيات ثقافية موروثة متنوعة (سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية) ، أسهم التراث الأدبي كثيراً بحملها ، ومنحها المناخ الملائم للانتعاش في أذهان الشعراء ، ومن ثمَّ تجلِّيها في النصوص الشعرية المُنتَجة . فلو ألقينا نظرة على تاريخ المجتمع الإنساني ، لوجدناه ذكورياً خالصاً ، جاء مبنيَّاً على وفق ترسبات الثقافة الذكورية ، التي همَّشت دور المرأة ، وأعلت من سطوة ذكوريتها ، فالأنثى الصورة المخالفة بايولوجياً للذكورة ، قد فُصِّلت صورتها على وفق ضمور قابليات عقلها ، فهي في مخيال الذكورة

الجمعي أنثى قاصرة عن الفهم ، فلا تتساوى مع الآخر الذكوري ، حتى وإن تغلَّبت قدراتها العقلية على عقول آلاف الرجال ؛ لأنَّها في كينونة الوجود الأنثوي مقترنة بنفعية المجتمع الذكوري ، الذي يسعى جاهداً إلى تفضيل أنوثتها ، وكأنَّه يريد وصمها بلعنة الشفاء الذكوري[٣٩]. فهي على وفق مقاساته مليئة بالعيوب ، وتفتقر إلى الود والوفاء ، وحسن التدبير . حتى أصبح هذا التصوُّر شيئاً مألوفاً وشائعاً في المجتمع ، وأخذ ينعكس على الأداء الشعري لدى بعض الشعراء القدامى . وقد ذكر الشاعر علقمة بن عبدة جانباً من عيوب المرأة ، كما حدَّدتها الثقافة ، إذ يقول :

فـــإنْ تسألُوني بالنساءِ فإنَّني بصـــيرٌ بأدواءِ النِّساءِ طبيـــبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُهُ فليسَ لـــه مــن وُدِّهِنّ نصيبُ
يُرِدْنَ ثراءَ المالِ حيــثُ عَلِمْـنَهُ وشرخُ الشَّبابِ عندَهُــنَّ عجيبُ[٤٠]

وتابعه امرؤ القيس بقوله :

أرَاهُنّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَــلَّ مالُـــهُ ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيهِ وقَوَّسَا[٤١]

ويبدو أنَّ هذه الصورة القبيحة التي لازمت المرأة طويلاً ، بدوافع الاستعلاء الذكوري ، قد أصابها شيء من العدوى ، فبدأنا نراها في المنامات . وخير مثال على ذلك ما نُقِل عن الشاعر محيي الدين بن عربي ، إذ يقول : ((**رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة ، فسألني كيف حالك مع أهلك؟ فقلت :**

إذا رأتْ أهلُ بيتي الكيسَ مُمْتَلِئاً تَبَسَّمَتْ وَدَنَـــتْ مِنّي تمازحُني
وإن رأتْهُ خَلِيّاً مـــنْ دراهـــمِهِ تَجَهَّمَتْ وانْثَنَتْ عَنِّي تقابحُـــني

فقال لي صدقت كلنا ذلك الرجل))[٤٢].

فالمنام السابق يضمر نسقاً ثقافياً ارتبط بالتوجُّهات الذكورية ، ذات النزعة المتعالية في التعامل مع المرأة ، عبر تعمُّد إظهارها بصورة لا تتناسب مع دورها وأثرها في المجتمع ، ومحاولة تجريدها من السمات الإيجابية ، والتفكير الواعي ، فرُسِمت صورتها على وفق منظار الرجل الذي أنتج صورة غلب عليها طابع الاستهزاء والسخرية ، إذ عمل على ازدرائها ، وتهميش دورها في الحياة الاجتماعية ، إذ جعل منها موضوعاً للتسلية

وإضحاك الآخرين، حينما جعل جلَّ همِّها وتفكيرها في كيفية الحصول على الأموال ، وأنَّ ردود أفعالها وتصرُّفاتها تكون محكومة بذلك .

والشيء اللافت للنظر هو قول الفقيه : (**صدقت كلنا ذلك الرجل**) ، الذي يمثِّل جملة ثقافية متغلغلة في أذهان معظم الرجال ، هدفها تحقير المرأة وتشويه صورتها ، بما يؤكِّد ((أنَّ الطاقة النسقية أقوى من قدرة شخص مفرد))[٤٣]. ويؤيِّد ما ذهب إليه الدكتور علي الوردي من أنَّ ((الإنسان لا يفكِّر بعقله المجرَّد ، بل يفكر بعقل مجتمعه ، فهو ينظر في الأمور ، ويميِّز بين الحسن والقبح منها ، حسب ما يوحي به المجتمع إليه ، إنَّ تفكيره يجري في نطاق القوالب والخطوط التي صنعها المجتمع له))[٤٤]. لذلك كانت عبارة الفقيه دليلاً على رسوخ نسق الانتقاص من المرأة في الوعي الجمعي ، وهو بلا شك يعكس العلاقة الجدلية بين المركز والهامش ، التي تميل فيها الكفَّة إلى الجانب الذكوري ، الذي كان وما زال متشبثاً بموقعه في المركز ، ويحاول المحافظة على مكتسباته وتفوُّقه ، فعمل على استغلال سطوته في ابتداع أنساق معيَّنة ، حدَّد فيها سلوك المرأة وتصرُّفاتها على وفق أهوائه ، لتعكس جنوحه نحو التسلُّط والهيمنة حتى في المنام .

الخاتمة

وبناءً على ما سبق ذكره ، وبعد الاطِّلاع على النماذج المختارة من المنامات الأندلسية ، بهدف استنطاق أنساقها المضمرة ، ومعرفة مكانة المرأة ، وأثرها ودورها في المواقف التي وردت فيها ، وجد البحث أنَّ المرأة شكَّلت مادة أساسية في منامات أندلسية متعدِّدة ، وقد سجَّلت حضوراً غلب عليه البعد الثقافي ، فجاء أغلبه متأثراً بما يحمله الرجل من وعي ثقافي عن المرأة في ذهنه ، ويمارسه اتِّجاهها على أرض الواقع . لذلك فإنَّ عملية الرصد والمتابعة التي أُجرِيت ، قادتنا إلى أنَّ صورة المرأة في المنامات لم تختلف كثيراً عن صورتها النسقية بإطارها الثقافي الراسخ ، التي شكَّلها المخيال الذكوري في اليقظة . فوجدنا أنَّها كانت تعاني من النظرة الذكورية الضيِّقة ، التي ترتكز في أدائها التعبيري ، وتوجُّهاتها النسقية على خزين ثقافي واسع يمتد لعصور كثيرة ، أسهم إلى حد كبير بخلق أنساق ثقافية متنوِّعة ، مارست أنشطتها ، وتحرَّكت بفاعلية ، فتركت آثارها

السلبية على طريقة تفكير الرجل وتصرُّفاته . وبدا صداها واضحاً في الخطاب الأدبي ، بوصفه الحاضنة التي تؤوي الكثير من الحالات النسقية الشائعة في الثقافة ، ومن ثمَّ استطاعت أن تتسلَّل إلى المنامات . وعندئذٍ تحوَّلت إلى خطاب ثقافي تحرِّكه الأنساق الثقافية التي تستمد صورتها وحركتها من عالم الحقيقة المعيش . وبعد أن حملت المنامات مجموعة من العناصر النسقية ، أصبحت جزءاً من المنظومة الثقافية ، فعملت هي الأخرى على تكريس الهيمنة الذكورية ، وتأكيد نسقية المركز والهامش ، شأنها في ذلك شأن العوامل الثقافية الأخرى ، عبر ممارسات ذكورية محكومة بسياقات ثقافية فاعلة ، تمثَّلت بالجنوح نحو استغلال الجسد الأنثوي ، بحثاً عن المتعة والانتشاء العاطفي ، وقد كان للجواري دور إغرائي في بعض المنامات ، إذ شكَّل التعلُّق بهنَّ مظهراً نسقياً استطاع الدخول إلى عالم المنام ، فجاء انعكاساً لما يجري في الساحة الأندلسية من ممارسات سياسية واجتماعية . فيما سجَّل البحث حالات نسقية أخرى تجسَّدت في سلب المرأة كل ما يرتبط بها من قيم عليا ، وإلصاقها بالرجل ، وجعلها ملكاً خاصاً له . فضلاً عن نسقية اقتران المرأة بالخطيئة ، وتبرئة الرجل من الفعل والتبعات .

الهوامش

(١) المرأة في وحي الشعراء ، عيسى سابا : ٣ – ٤ .

(٢) جدلية الأنساق المضمرة في النقد الثقافي ، سحر كاظم حمزة : ٢٦٤ .

(٣) الجنوسة النسقية – أسئلة في الثقافة والنظرية ، عبد الله الغذامي : ٢٥ .

(٤) أخلاق العناية ، فرجينيا هيلد ، ترجمة : ميشيل حنا ميناس : ٨٧ .

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أحمد علي القلقشندي ، تحقيق: د. يوسف علي طويل : ١ / ٩٦ .

(٦) اللزوميات لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري ، تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي : ١ / ٥٢ .

(٧) المرأة العربية في منظور الدين والواقع دراسة مقارنة ، جمانة طه : ٢٨ .

(٨) م.ن : ٣٣ .

(٩) ينظر : المرأة العربية وقضايا التغيير بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي، د. خليل أحمد خليل : ٣٨ .

(١٠) جدلية الأنساق المضمرة في النقد الثقافي : ١٠٩ .

(١١) المرأة العربية وذكورية الأصالة ، مي غضوب : ١١ .

(١٢) المرأة العربية في منظور الدين والواقع – دراسة مقارنة : ٢٤٧ .

(١٣) الخطاب الروائي النسوي – دراسة في تقنيات التشكل السردي ، سهام أبو العمرين : ٢٠ .

(١٤) الأنساق الثقافية في شعر الفقهاء (٢٤٧–٦٥٦هـ) ، زينب علي حسين الموسوي ، أطروحة دكتوراه : ١٩ .

(١٥) بهجة المَجالس وأنس المُجالِس وشحذ الذاهن والهاجس ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، تحقيق : محمد مرسي الخولي : ق٢ / ١٠ .

(١٦) م.ن : ق٢ / ١٠ .

(١٧) ينظر : الأنساق الثقافية في شعر الفقهاء (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ) : ٤٠ .

(١٨) م.ن : ٢٤ .

(١٩) ينظر : البغاء أو الجسد المستباح ، فاطمة الزهراء أزرويل : ٥٧ – ٥٨ .

(٢٠) ينظر : دراسة الأنساق الثقافية في رواية نجيب محفوظ أولاد حارتنا، سمية بوقرة ، رسالة ماجستير : ٩٠ .

(٢١) ديوان المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية ، تحقيق: د. حامد عبد المجيد ، د. أحمد أحمد بدوي : ٩ .

(٢٢) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر ، د. عبد الله محمد الغذامي : ٢٢١ .

(٢٣) ينظر : مقدمة ديوان المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية : ١٨ – ١٩ .

(٢٤) ينظر : الجسد والمجتمع – دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد ، صوفية السحيري بن حتيرة : ٤٧ .

(٢٥) شعر أبي البركات ابن الحاج البلَّفيقي ، بعناية : عبد الحميد عبد الله الهرامة : ٢٨ .

(٢٦) الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب ، مراجعة وتقديم وتعليق : بوزياني الدراجي : ٢ / ٤٥٦ .

(٢٧) ينظر : الأحلام بين العلم والعقيدة ، د. علي الوردي : ٧٦ – ٧٧ .

(٢٨) النوم والأحلام (أحلام الأطفال) ، د. عبد الرزاق جعفر : ٤٧ .

(٢٩) رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق : د. إحسان عباس : ١ / ١١٥ – ١١٦ .

(٣٠) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق : د. إحسان عباس : ٤ / ١١٥ .

(٣١) ينظر : دلالة الألوان في شعر المتنبي ، عيسى متقي زاده – خاطرة أحمدي ، بحث منشور : ١٣٥ .

(٣٢) عالم الأحلام تفسير الرموز والإشارات ، د. سليمان الدليمي : ١٧١ .

(٣٣) ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تحقيق : د. محمد توفيق النيفر : ١٠٠ .

(٣٤) صورة المرأة الأردنية في الرواية الأردنية ١٩٤٨ – ١٩٨٥ ، أروى عبد الله فارس عبيدات ، رسالة ماجستير : ٧٣ .

(٣٥) قصة الحضارة – الشرق الأدنى ، ول وايريل ديورانت ، ترجمة : محمد بدران : ج٢ / مجلد١ / ٣٦٩ .

(٣٦) تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، وضع حواشيه وعلَّق عليه : محمد حسين شمس الدين : ٣ / ٣٥٩ .

(٣٧) ديوان يحيى بن حكم الغزال ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية : ٦٤ .

(٣٨) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٣ / ٤١٢ .

(٣٩) ينظر : الأنساق الثقافية في شعر الفقهاء (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ) : ٢٣ .

(٤٠) ديوان علقمة الفحل ، تحقيق : لطفي الصقال ، وريَّة الخطيب : ٣٥ – ٣٦ .

(٤١) ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : ١٠٧ .

(٤٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٢ / ١٦٧ .

(٤٣) النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله محمد الغذامي : ١٥٨ .

(٤٤) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي : ١٦٥ .

المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب ، مراجعة وتقديم وتعليق : بوزياني الدراجي ، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع ، الجزائر ، (د.ط) ، ٢٠٠٩م .
- الأحلام بين العلم والعقيدة ، د. علي الوردي ، دار كوفان للنشر – لندن ، ط٢ ، ١٩٩٤م .
- أخلاق العناية ، فرجينيا هيلد ، ترجمة : ميشيل حنا ميناس ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، (د.ط) ، ٢٠٠٨م .
- أسرار النوم ، الكسندر بوربلي ، تر : د. أحمد عبد العزيز سلامة ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع١٦ ، ١٩٩٢م .
- الأنساق الثقافية في شعر الفقهاء (٢٤٧ – ٦٥٦ هـ) ، زينب علي حسين الموسوي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة القادسية – كلية الآداب ، ٢٠١٧م .

- البغاء أو الجسد المستباح ، فاطمة الزهراء أزرويل ، منشورات أفريقيا الشرق – المغرب ، (د.ط) ، ٢٠٠١م .
- بهجة المَجالس وأنس المُجالِس وشحذ الذاهن والهاجس ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، وضع حواشيه وعلَّق عليه : محمد حسين شمس الدين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٨م .
- جدلية الأنساق المضمرة في النقد الثقافي ، سحر كاظم حمزة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية – سوريا ، ط١ ، ٢٠١٧م .
- الجسد والمجتمع – دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد ، صوفية السحيري بن حتيرة ، دار الانتشار العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٨م .
- الجنوسة النسقية – أسئلة في الثقافة والنظرية ، عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط١ ، ٢٠١٧م .
- الخطاب الروائي النسوي – دراسة في تقنيات التشكل السردي ، سهام أبو العمرين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط١ ، ٢٠١١م .
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر ، د. عبد الله محمد الغذامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٤ ، ١٩٩٨م .
- دراسة الأنساق الثقافية في رواية نجيب محفوظ أولاد حارتنا ، سمية بوقرة ، رسالة ماجستير ، الجمهورية الجزائرية ، جامعة العربي التبسي – تبسة ، ٢٠١٦م – ٢٠١٧م .
- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي ، بغداد ، (د.ط) ، (د.ت) .
- دلالة الألوان في شعر المتنبي ، عيسى متقي زاده – خاطرة أحمدي ، بحث منشور ، مجلة إضاءات نقدية ، السنة ٤ ، ع١٥ ، أيلول ، ٢٠١٤م .
- ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تحقيق : د. محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٩٧م .
- ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف – القاهرة ، ط٤ ،(د.ت) .
- ديوان علقمة الفحل ، تحقيق : لطفي الصقال ، وريَّة الخطيب ، راجعه : د. فخر الدين قباوة ، دار الكتاب العربي بحلب ، ط١ ، ١٩٦٩م .

- ديوان المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية ، تحقيق : د. حامد عبد المجيد ، د. أحمد أحمد بدوي ، راجعه : طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠٠م .
- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٣م .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، (د.ط) ، ١٩٩٧م .
- رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق : د. إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧م .
- الرؤيا في خطاب الأحلام والمنامات في الأدب العربي القديم ، د. سمر الديوب ، بحث منشور ، مجلة جامعة البعث ، مجلد٣٦ ، عدد٧ ، ٢٠١٤م .
- شعر أبي البركات ابن الحاج البلَّفيقي ، بعناية : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ، الإمارات العربية المتحدة – دبي ، ط١ ، ١٩٩٦م .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أحمد علي القلقشندي ، تحقيق : د. يوسف علي طويل ، دار الفكر – دمشق ، ط١ ، ١٩٨٧م .
- صورة المرأة الأردنية في الرواية الأردنية ١٩٤٨ – ١٩٨٥ ، أروى عبد الله فارس عبيدات ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية – كلية الآداب ، ١٩٨٦م .
- طبيعة النوم والأحلام في ضوء علوم الدماغ : د. نوري جعفر : دار الشؤون الثقافية العامة ، سلسلة الموسوعة الصغيرة : ٢٦٥ : بغداد ، ١٩٨٦ .
- عالم الأحلام تفسير الرموز والإشارات ، د. سليمان الدليمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٦م .
- قصة الحضارة – الشرق الأدنى ، ول وايريل ديورانت ، ترجمة : محمد بدران ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، (د.ط) ، (د. ت) .
- اللزوميات لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري ، تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي ، منشورات مكتبة الهلال – بيروت ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت) .
- المرأة العربية في منظور الدين والواقع دراسة مقارنة ، جمانة طه ، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، (د.ط) ، ٢٠٠٤م .
- المرأة العربية وذكورية الأصالة ، مي غضوب ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩١م .
- المرأة العربية وقضايا التغيير بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي، د. خليل أحمد خليل ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

- المرأة في وحي الشعراء ، عيسى سابا ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ط) ، ١٩٥٣م .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، (د.ط) ، ١٩٦٨م .
- النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، المملكة المغربية – الدار البيضاء ، ط٢ ، ٢٠٠١م .
- النوم والأحلام (أحلام الأطفال) ، د. عبد الرزاق جعفر ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ، ط١ ، (د.ت) .